



شعر حسان بن ثابت

في ميزان النقد والفن

— نجدة كاظم لاطة - الأردن —

مما اشتهر عن الأصمعي قوله (الشعر نكد، يقوى في الشر، فإذا دخل في الخير ضعف ولان، هذا حسان فحل من فحول الشعراء في الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره) وقد بني على هذه المقولة معظم الشعر العربي عبر تاريخه الطويل، سواء أكان في نظم الشعراء أم في دراسته؟
فالشاعر إذا أراد أن يكون لشعره القوة والجمال لا بد أن يسير على طريق الشعراء الجاهليين الذين كانوا لا يلقون بالاً للقيم والأخلاق، فتراهم يقولون ما لا يفعلون، ويصفون ما لا يرون، ويوحون بما لا يشعرون، ويهيمون في كل واد دون أدنى رادع ديني أو أخلاقي لهم.

وانفعالاتهم الحقيقية، ولعل هذا هو السبب في اختلاف النقاد حول شاعر ما.

❖ انصراف الخيرين ممن يمتلكون الموهبة الشعرية عن نظم الشعر، وليس أدل على ذلك من قول الشافعي:

ولولا الشعر بالعلماء يزري

لكن اليوم أشعر من لبيد

المشهور (أعذب الشعر أكذبه) باعتبار الغواية والكذب في الشر.

الأمر الذي أدى إلى نتائج خطيرة أضرت بالشعر العربي من جهة، وبالحضارة الإسلامية من جهة أخرى، وذلك من نواح عديدة أهمها: ❖ فتح باب الكذب للشعراء في نقل تجاربهم الشخصية، فلم تصل إلينا مشاعرهم وعواطفهم

وما زال النقاد وطلاب الأدب إلى يومنا الحاضر يرددون هذه المقولة دون أن يقفوا أمامها لمناقشتها ومعرفة مدى صحتها، وذلك بسبب كون هذه المقولة من المسلمات التي لا يجوز النقاش فيها، وهم يعززون صحة المقولة بفهم مغلوط لقول الله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء) ويعززونها أيضاً بالقول

مما جعل قول الشعر مقتصرًا - في الغالب - على أناس لا يلقون بالاً للقيم والأخلاق، بدءاً بأبي نواس وانتهاءً بنزار قباني.

❖❖ حرمان الحضارة الإسلامية من مساهمة الشعر في نقل المفاهيم التي جاء بها الإسلام ضمن الرؤى الشعرية، لأنه - كما هو معروف - أن أية ثورة فكرية تحدث في مجتمع ما لا بد أن تنتقل إلى كافة الفنون فتتغير رؤى الفنانين تبعاً لأيديولوجية تلك الثورة، وهذا ما حدث في أوروبا بعد ثورتها الصناعية الحديثة، وهو ما حدث أيضاً في روسيا بعد ثورتها الشيوعية.

لذا وجدنا أن الشعر العربي لم يختلف في جوهره بعد مجيء الإسلام عما كان عليه في العصر الجاهلي، فبقيت أغراضه الشعرية كما كانت في العصر الجاهلي، سواء أكان ذلك في أسلوب تناول الأغراض أم في تشكيل الرؤى والمضامين، فهل اختلف فخر الفرزدق أو المتنبّي أو غيرهما عن فخر عمرو بن كلثوم؟ وهل اختلف غزل أبي نواس أو غيره عن غزل امرئ القيس إن لم نقل: إنه زاد سوءاً وفحشاً؟ وهل اختلف مدح جرير عن مدح النابغة الذبياني؟ وهكذا مع بقية الأغراض.

« قضية الكذب في الشعر »

وقد درس الدكتور محمد النويهي في كتابه «عنصر الصدق في الأدب» قضية الكذب في الشعر، ولكن - للأسف - لم تأخذ دراسته حيزاً في

الدراسات الأدبية المعاصرة، فبقيت مغمورة، ولا أدري سبب عدم تقبل الشعراء والنقاد لهذه الدراسة علماً بأن النويهي قند قضية الكذب في الشعر بطريقة علمية لا تدع لأحد عذراً في عدم تقبلها أو عدم الاقتناع بها. ولا بأس في أن أعرض لشيء في دراسة النويهي كمدخل لدراسة شعر حسان بن ثابت لأن في دراسته النفع الكثير.

يقول الدكتور محمد النويهي: إن للفن دافعين متلازمين لا يبرزان



أبو نواس

إلا إذا وجدا معاً، لا يغني أولهما عن ثانيهما، هما رغبة الفنان في أن ينفس عن عاطفته، ورغبته في أن يضع هذا التفتيس في صورة تثير في كل من يتلقاها نظير عاطفته، وواضح أنه ليس كل تفتيس عن عاطفة يدخل في دائرة الفن، فإذا أنا حزنّت فيكيت، أو غضبت فصحت، أو فرحت ففقهت ضاحكاً، فليس في مجرد بكائي أو صياحي أو ضحكي تعبير فني، أما إن صغت انفعالي هذا في صورة لا تكتفي

بمجرد التفتيس، بل تحاول عامدة أن تنقل انفعالي إلى الآخرين وتثير فيهم نظير ما أثارته تجربتي في من عاطفة، فهذه المحاولة هي التي تؤدي إلى إنتاج نوع من أنواع الفن.

فأهمية الفن تكمن في أنه ناقل للعاطفة الإنسانية، وإذا كان الفن هو المعبر الأكبر عن تجارب الحياة الإنسانية، والأداة العظمى لنقل هذه التجارب وتخليدها، فمن الواضح أنه لن تكون له هذه القيمة إلا إذا كان تعبيره هذا تعبيراً صادقاً، فلم يعرض إلا للتجارب الحقيقية التي تجربها الإنسانية فعلاً في حياتها هذه، وكان تصويره لتلك العواطف تصويراً صادقاً لا كذب فيه ولا تهويل.

وقد بلغ الأمر ببعضهم - يقصد النقاد القدماء - أنهم لم يكتفوا بقبول الكذب في الشعر ومسامحته والاعتذار له، حتى استحسنوه وتطلّبوه واشترطوه، فهم يستشهدون كثيراً بالمقولة الشائعة: أعذب الشعر أكذبه، ويروون ما قاله ابن رشيقي في العمدّة: من فضائل الشعر أن الكذب الذي اجتمع الناس على قبّحه حسن فيه.

واعتماد الكذب في الأدب يشوه من فهمنا لكياننا الإنساني كله، ونزيف صورتنا عن حياتنا الإنسانية الشاملة، ونعطي أولادنا وأحفادنا صورة خاطئة زائفة عن تجارب الإنسان الأساسية في هذا الكون، لأن الأدب لم ينشأ لمجرد التسلية والترويح عن النفس، وإنما نشأ



لغرض جاد خطير عظيم الخطورة والجِد، ليزيدنا شعوراً بإنسانيتنا، وفهماً لكنها، وتعمقاً في نوازعها الباطنة ووعياً بتجاربها^(١).

فالصدق - لا الكذب - هو الركيزة الأساسية في الفنون عامة، وكلما اقترب الفنان أو الأديب أو الشاعر من عنصر الصدق زاد نجاحه في نقل تجربته الشعورية إلى الآخرين.

وقد ارتبطت مقولة الأصمعي بحسان بن ثابت ارتباطاً وثيقاً، وأصبح الشعر الذي قاله بعد مجيء الإسلام الاستشهاد الوحيد لهذه المقولة، ولا زلت أذكر وأنا في الدراسة الجامعية - البكالوريوس والماجستير - أن أساتذتي كانوا يستشهدون لها بشعر حسان فقط دون غيره.

ونحن لو رجعنا إلى الشعر العربي منذ امرئ القيس إلى يومنا الحاضر لوجدنا أن قسماً من هذا الشعر قيل في الخير، وكان قوياً وجميلاً وذا مستوى عالٍ من الناحية الفنية، وأن الخيرية فيه لم تضعف منه شيئاً لا موضوعياً، ولا فنياً، بل حدث العكس فقد رفعته وأشهرته حتى صار عند الناس من الاستشهاد في حياتهم اليومية والثقافية ومعلقة زهير بن أبي سلمى خير شاهد على ذلك، فالمعروف عن هذه المعلقة أنها قيلت في الخير وهو الصلح الذي قام به هرم بن سنان والحارث بن عوف بين قبيلتي عبس وذبيان، والموضوع الرئيسي في المعلقة هو مدح هذين الرجلين الكريمين اللذين قاما

أما المقدمة الغزلية التي بدأ زهير بها معلقته فهي من المهارات الفنية التي يتبارى الشعراء بها، ويزينون قصائدهم بها، ولا علاقة لكثير من المقدمات الغزلية بحياة الشعراء الشخصية، ومع ذلك فقد كان زهير في هذا الغزل عفيفاً غير متفحش، وهذا أيضاً من الخير، وقد كان الرسول ﷺ يسمع الشعر الغزلي ولا يعترض عليه، وقصيدة «بانت سعاد» أشهر من أن تذكر.

وبهذا تكون معلقة زهير من الشعر الذي قيل في الخير، وأن هذا الخير لم يضعف منه شيئاً. وإن أية مقارنة بين معلقة زهير وقصائد حسان بن ثابت التي قالها في زمن الإسلام لا نجد فرقاً واضحاً بين الشعرين، لأن كلا الشعرين اجتمع فيه الآتي:

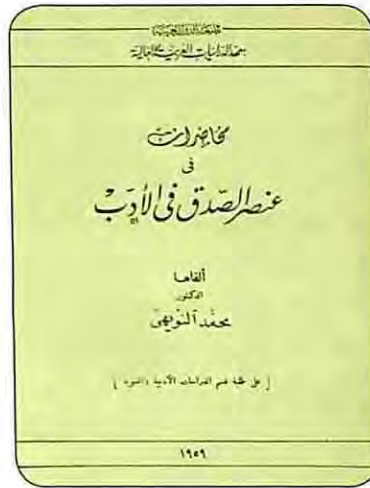
- ١ - الغزل غير المفتحش.
 - ٢ - المدح الذي يستحقه صاحبه، وكان الممدوح في قصائد حسان هو الرسول ﷺ.
 - ٣ - الحكم الصحيحة والمفيدة للإنسان، لأن شعر حسان كان يتضمن أيضاً حكماً، وهي متفقة مع تعاليم الإسلام.
- ومثال آخر أكثر تأكيداً من معلقة زهير، وهو قصيدة كعب بن زهير التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها لم يصد مكبول

فهذه القصيدة لا تختلف

في مضامينها عن شعر حسان في الإسلام، والخير الموجود في القصيدة لم يضعف شيئاً منها.



هل صحيح أن كبار سن حسان بن ثابت السبب الوحيد في ضعف شعره بعد الإسلام؟!

بالصلح ودفعاً الديات لكلا الطرفين من مالهما الخاص والمدح هنا كان صادقاً وزهير لم يبالغ في هذا المدح لأن الرجلين يستحقان المدح، بل ويستحقان أكثر من مدح زهير، لأن الرجلين أوقفوا حرباً دامت أربعين سنة، ذهب فيها آلاف القتلى. والموضوع الآخر في المعلقة هو الحكم التي ذكرها زهير في ثنايا معلقته وقد كانت صحيحة ومفيدة للإنسان وما زال بعضنا يستشهد بها اقتناعاً بها وبصحتها بالإضافة إلى كونها تتسجم مع مفاهيم الإسلام، فهي لذلك خير، وقد قيل عن زهير: إنه لو أدرك الإسلام لأسلم.

وتستوي الحياة بأعين كبار السن فتجدهم غير مبالين بالحياة. والشاعر المسن يضعف إنتاجه الشعري ويقل، وتذبل عواطفه ومشاعره ويضعف عنده جراء ذلك الحس الفني والذائقة النقدية. وذهب بعض النقاد المعاصرين إلى اتجاهات شتى أخرى غير التي ذكرها الأصمعي في أسباب ضعف شعر حسان بن ثابت الإسلامي، فيقول الناقد عبدالقادر القط: «يكاد يجمع الدارسون على أن شعر حسان قد هبط في مستواه الفني بعد الإسلام، وإن اختلفوا في تقليل ذلك الهبوط، فينسب بعضهم إلى اختلاف طبيعة التجربة، والحياة بين الجاهلية والإسلام».

ويرى بعضهم أن ما نلاحظه من ضعف في بعض شعره يعود إلى أن كثيراً من هذا الشعر قد حمل عليه لأسباب سياسية أحياناً، أو لاختلاط شعره بشعر غيره من الشعراء المسلمين كعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك^(٢).

فأقول إن ما ذهبوا إليه بعيد عن الصواب، وإلا فما علاقة اختلاف التجربة في الجاهلية عنها في الإسلام؟ ومن قال: إن الشعراء لا يستطيعون نظم الشعر الجيد إلا في المجتمعات الفاسدة والمتخلفة؟ لقد كان حسان في الجاهلية يمدح ويفخر ويهجو، وفي الإسلام مدح وافتخر وهجا، بل إن تجربته في الإسلام أكثر صدقاً في العاطفة، لأنه كان في الجاهلية يمدح أناساً

بعده، ويروى عنه أيضاً أنه عاش في الإسلام ستين سنة وقيل أربعين. أما شعره الجاهلي الذي يقارنه النقاد بشعره الإسلامي فقد قاله وهو في مرحلة الشباب، وشعر مرحلة الشباب يكون أكثر توهجاً وأقوى انفعالاً وأصدق عاطفة، لأن هذه المرحلة من العمر تحتوي على



عبدالقادر القط

معاني الحب والأمل والطموح والمعاناة والعواطف المتأججة والانفعالات الصاخبة، والشاعر عادة يعبر عن الحياة من خلال هذه المعاني، أما مرحلة الشيخوخة وهي نفس مرحلة إسلام حسان فلا يوجد فيها هذه المعاني، وذلك بسبب شعور الإنسان بأنه سيفارق الحياة قريباً، لذا نجد كبار السن ينغزلون وينزوون ويخلدون إلى الراحة، والحكومات المعاصرة تحيل من بلغ الستين من العمر إلى التقاعد وهي تفلسف لهذا القانون بأن الإنسان الذي بلغ هذا العمر يقل إنتاجه ويضعف.

والعواطف والانفعالات والمشاعر تهدأ في مرحلة الشيخوخة وتبرد،

وقصيدة كعب هذه التي قالها وهو قد نوى الدخول في الإسلام فاقت كل قصائده في الجاهلية، ولو كان في شعره الجاهلي قصيدة أجمل من قصيدة «بانت سعاد» لظهرت ولتحدث النقاد عنها ولحفظ الناس شيئاً منها.

ولكن الحقيقة تقول: إن الناس وعامة المثقفين وبعض النقاد لا يعرف شيئاً من شعر كعب بن زهير إلا قصيدته «بانت سعاد» ولم تأت شهرة القصيدة لأنها قيلت في الرسول ﷺ فحسب وإنما لجمالها أيضاً.

فلماذا لم يقل الأصمعي في هذه القصيدة مثل قوله في شعر حسان الإسلامي؟ ألم تدخل قصيدة كعب في الخير مثل دخول شعر حسان الإسلامي في الخير؟

وتوجد أمثلة كثيرة في الشعر العربي قديمه وحديثه على جودة الشعر الذي قيل في الخير، وأكتفي بالمثالين السابقين خشية الإطالة.

وسيعترض النقاد عليّ قائلين: لكن الحقيقة أن شعر حسان بن ثابت الذي قاله في الجاهلية أقوى وأجمل من شعره الذي قاله في الإسلام، فأقول: هذا صحيح، ولكن المشكلة ليست هنا، وإنما المشكلة في أسباب ضعف شعره الإسلامي فهل ضعف شعره بسبب دخوله في الخير أم أنه يوجد سبب آخر؟ فأجيب بأنه يوجد سبب آخر، وهو كبر سنه، لأن الروايات تقول: إن حسان بن ثابت أسلم وعمره ستون سنة، فيكون شعره في الإسلام قد قاله في هذا العمر أو



الحجرة إلى الذات

شعر: د. مصطفى رجب - مصر

صوت:

يا ابن مالك .. قم فإن الليل حالك
قم فعلم النحو هزته الحضارات الدنيئة
لم تعد فيه «الخلافات» البريئة
حول «واو العطف» أو «إعراب» ذلك»
قم فنحن اليوم «منفيون» في أرض الدناءة
قم فطهرنا وخلصنا .. وألغ «النفى» ... واسترجع
لنا عهد البراءة

قم فنحن اليوم مشطوبون من سفر السعادة
في جواب الشرط مسجونون من قبل الولادة
في شعاب التيه .. والتعتيم ما انفكت مطاينا
تجوب الأرض .. مسلوبى الإرادة
في متاهات المفاوز
يا ابن مالك .. نحن في عصر التجاوز
واتساعات المدارك

كل ما يجري لنا في عصرنا باسم الحضارة
هو من باب التجاوز
نحن في عصر الحقارة
يا ابن مالك ..
«حذف ما يعلم جائز»

صلى:

أمس زيد كان مرفوعا .. ودوما كان فاعل
وهو مفعول به الآن .. لآلاف الأراذل ..
صار منصوبا ونصابا .. وبيع «فلاقل» !!
يا ابن مالك

إن زيدا في الجمارك
كل يوم في معارك
يشترى عطر الصبايا
ومناديل الصبايا
ويلف الكل في أوراق ديوان المعري
وشروحات ابن مالك ..

ربما لا يستحقون المدح، كشأنه مع ملوك الفساسنة، فأين هؤلاء الملوك من تلك الصفات العظيمة التي مدحهم بها؟ وكذلك الأمر في الفخر والهجاء.

أما في الإسلام فقد مدح الرسول الكريم ﷺ الذي يستحق المدح، وافتخر بالمسلمين الذين يستحقون الافتخار بهم، وهجا المشركين الذين يستحقون الهجاء، أي أنه كان مقتنعا بكل ما كان يقوله في الإسلام، بعكس ما كان يقوله في الجاهلية لأن شعره الجاهلي كان ينم في كثير من الأحيان عن مبالغة وعدم اقتناع بمضمونه ويكون أحيانا حبا في مال الممدوح.

وبخصوص قول النقاد: إن شعر حسان قد أصابه الضعف بسبب أنه حمل عليه لأسباب سياسية، فغير صحيح لأن حسان بن ثابت صحابي جليل وقد دخل في الإسلام اقتناعا به، وكان يناقح عن هذا الدين بكل إخلاص وصدق، وقد كان الرسول ﷺ يقول له - فيما يخص هجاء المشركين: «اهجهم وروح القدس معك» فمن غير المعقول أن يقول الرسول الكريم هذا الكلام لشاعر محمول على شعره أو غير مقتنع بما يقول، لأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولأن روح القدس الذي هو جبريل عليه السلام لا يكون إلا مع المخلصين لهذا الدين.

أما من عزا ضعف شعر حسان الإسلامي إلى اختلاطه بشعر غيره من شعراء المسلمين الذين هم أدنى منه شاعرية فقد ابتعد عن الصواب أيضا، فالعصر الإسلامي أقرب إلى رواة الشعر العباسيين من العصر الجاهلي، فلماذا لم يختلط شعره الجاهلي بشعر الشعراء الجاهليين؟

وتبقى قضية كبر سن حسان بن ثابت هي السبب الأوحى في ضعف شعره الذي قاله بعد مجيء الإسلام ■

الهوامش:

(١) عنصر الصدق في الأدب: تأليف محمد النويهي، طبع معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٥٩، ينظر صفحة ١٦ وما بعدها.

(٢) في الشعر الإسلامي والأموي: عبدالقادر القط، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩، صفحة ٢٣.